في تاريخ الجمعيات السرية

طائفة سرية عجيبة

تعيش في عصر المدنية بأساليب همجية

تتمة البحث

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان عهد القيصر اسكندر الأول أصلح عهد لنمو الحركات الروحية السرية في روسيا. ففيه أنشئت في بطرسبرج عدة محافل سرية لمزاولة الشعائر والتجارب الروحية، وكان قوام هذه الحركة عدة من سيدات الطبقة العليا مثل البارونة بكشفدن ومدام تاتاريبوفا. وكان الأكابر والخاصة يشهدون هذه الحفلات الروحية التي اشتقت رسومها وشعائرها من رسوم بعض الجمعيات السرية الوثنية قبل جمعية « أهل الله » وطائفة « سكوبتسي » ذاتها؛ ووقع القيصر نفسه تحت تأثير البارونة فون كرورنر الشهيرة، وهي سيدة اشتهرت يومئذ بنزعتها الصوفية والروحية وكان لها أكبر الأثر في توجيه سياسة القيصر، وفي سير الحوادث والشئون؛ وكان القيصر يعتقد أن مؤازرة هذه الحركات الروحية هي خير وسيلة لمكافحة حركة البناء الحر (الماسونية) والجمعيات السرية الأخرى التي كانت منها طائفة « سكوبتسي »، ولكن طائفة « سكوبتسي » أو طائفة المجبوين لقيت في عهد اسكندر الأول كما قدمنا فترة صالحة للنمو، واستطاعت بما خول لها من الحرية والتسامح أن تلم شعثها، وأن تنشط لإذاعة مبادئها، واستطاعت بالأخص أن تنفذ إلى الطبقات المستنيرة التي لم تصل إليها من قبل. وغدا سليفانوف في شيخوخته كأنه ملك غير متوج تحج إليه الوفود من كل صوب، وتنهال عليه العطايا والمنح؛ وكثرت أموال الطائفة، واشتد نفوذها، وقدم اليانسكي وهو زعيم الطائفة الفكرى إلى كبير الوزراء رسالة وصفها عن مبادىء الطائفة ومثلها، وفيها يبرر إجراء « الجب » بحرارة، ويقترح على القيصر مشروعا للإصلاح السياسي تنقل بمقتضاه السلطة الفعلية إلى طائفة « المجبوين »، ويبقى القيصر رئيس الدولة بالاسم تحت زعامة سليفانوف الروحية؛ فأثارت هذه الجرأة اهتمام القيصر وحكومته بأمر المجبوين مرة أخرى، وقبض على اليانسكي، وسجن في أحد الأديار. أما سليفانوف فقد ترك حراً نظراً لشيخوخته وضعفه، بعد أن وعد بالكف عن الدعوة إلى الجب والاقتصار على الدعاية الروحية

على أنه لم يف بهذا الوعد، بل استمرت الدعوة الهمجية وذاعت بين طبقات كثيرة، واعتنقها عدد من الأغنياء وذوى النفوذ، وبلغ عدد المجبوين في هذه الفترة آلافا كثيرة. وانتظم في سلك الطائفة يومئذ وصيف سابق للامبراطور بطرس الثالث (فيدوروفتس) يدعى كوبليف، وأخذ يؤكد أن سليفانوف إنما هو القيصر بطرس بلامراء، وأن القيصر اسكندر يعرف جيداً أن جده يعيش بين المجبوين منذ عهد بعيد؛ وأسبغ سليفانوف على هذا الداعية لقب « النبي »؛ وهكذا أصبح سليفانوف يزعم أنه المسيح وأنه القيصر معاً

واكتشف حاكم بطرسبرج الكونت ملورادفتش أن ابنى أخيه قد وقعا في شرك « المجبوين » وأن أحدهما قد كابد بالفعل عملية الجب فثار سخطا؛ وضاقت حكومة القيصر ذرعاً بهذا الاجتراء المجرم الذى لم تنج منه حتى طبقة النبلاء، فانتدبت في سنة ١٨٢٠ لجنة سرية للتحقيق. وبعد البحث قر قرارها على اعتقال سليفانوف. وفي الحال اعتقل الداعية، ولكن في رعاية ورفق، وألقى في دير سوزدال؛ فارتاع أنصاره، وحاولوا السعي لإطلاق سراحه، ولكن الحكومة كانت هذه المرة جادة ثابتة العزم. ولما رأى الزعماء أن السلطات تتربص بهم وترقب حركاتهم عمدوا إلى أساليب السرية القديمة، وأخذوا يعملون في الخفاء، ويتظاهرون بأنهم من أخلص أنصار الكنيسة، ولكن السلطات قبضت على معظم زعماء الطائفة وزجتهم في مختلف الأديار والقلاع. وتوفى سليفانوف في معتقله سنة ١٨٣٢؛ ولكن « المؤمنين » يعتقدون إلى اليوم أنه حى، وأنه سيعود ليتولى السلطات في روسيا ويقيم يوم الحساب على نحو ما يعتقد الدروز في عودة الحاكم بأمر الله

ولم يخمد نشاط هـذه الطائفة السرية العجيبة خلال القرن التاسع عشر ، بل لبثت دعوتها تتسرب إلى جميع الطبقات ؛ ونفذت الدعوة إلى الجيش بكثرة ، واكتشفت السلطات مئات من « المجبوبين » فى كرونستات وفى القوقاز ، وأمر القيصر أن تؤلف من هؤلاء الخصيان فرقة خاصة فى الجيش . وفى سنة ١٨٤٢ قدم جند هذه الفرقة إلى القيادة بلاغاً قالوا فيه إنهم لا يعترفون بالقيصر ، وإن القيصر الحقيقى هو بطرس الثالث الذى اعتقل فى سوزدال وأعلنت وفاته كذباً ، فقبض على زعماء الفرقة ونفوا إلى سيبيريا

وتوالت محاكمات دعاة « السكوبتسى » خلال القرن التاسع عشر ، وأدمجت فى قانون العقوبات الروسى العقوبات الآتية : وهي أن يعاقب الشخص الذى يقوم بتشويه نفسه بالنفي إلى سيبيريا ؛ ويعاقب الذى يقوم بتشويه (بخصى) شخص آخر بستة أعوام فى الأشغال الشاقة ؛ ويعاقب الدعاة بالنفي إلى سيبيريا ؛ ويعاقب الشخص الذي يقوم بإيواء الدعاة فى منزله عقاب مرتكبي جريمة التشويه

ومن أشهر قضايا « المجبوبين » فى هذه الفترة ، محاكمة وقعت سنة ١٨٦٩ أمام محكمة جنايات تمبوف ، وفيها حكم بالنفى على مكسيم بلوتنزين ، وهو تاجر غنى كان يأوى فى منزله تسع نساء مشوهات ؛ ذلك أن هذه الطائفة البربرية كانت تجتذب إليها النساء أيضاً ، وكان تشويه النساء يجرى بقطع أجزاء من الثديين أو بانتزاعهما ، وكذلك بتشويه أعضاء أخرى ؛ وكان يخرج من هؤلاء النسوة المشوهات بين آونة وأخرى « مريم » تزعم أنها أم المسيح المزعوم . وكان بلوتنزين من أكابر الدعاة ، وكان يعتبر من « أنبياء » الطائفة وله نفوذ عظيم فى الولاية كلها . وفي سنة ١٨٧٦ ، كانت محاكمة رنانة أخرى أمام محكمة جنايات مليتوبول ، وفيها ظهر أمام القضاة مائة وستة وثلاثون مجبوباً حكم على معظمهم بالنفى . وكانت هذه المحاكمة الشهيرة خاتمة حركة سرية واسعة النطاق تعدت حدود روسيا إلى رومانيا ، وذهب ضحيتها مئات من الفلاحين والعمال . وكان الدعاة قد أخذوا إزاء اشتداد المطاردة فى روسيا يتسربون إلى رومانيا وهنالك أسسوا لهم « محافل » سرية فى ياسى وجلاتز ؛ وظهر فى جلاتز بين الدعاة شخص يدعى ليسين وهو روسى من موسكو ، وكان يمتاز بنوع من الهيام الصوفى ، فالتف المؤمنون حوله ولقبوه « بالمنقذ » وزعموا أنه القيصر بطرس الثالث . وصرح ليسين لأنصاره أنه أعظم من المسيح ، لأنه أتى لأجل المجد وليس كالمسيح لأجل المعاناة ، وأسبغ صفة الأنبياء والحواريين على عدة من أنصاره ؛ وذاعت الدعوة الجديدة فى رومانيا بسرعة ، وهرع الخصيان من كل صوب لتحية المسيح الجديد ؛ وبعث ليسين رسله يبشرون بقيامه ؛ ثم سار بنفسه فى حفل من أنصاره إلى بطرسبرج ليقدم نفسه إلى « القيصر الظاهر » ؛ ولكنه اعتقل مع زملائه فى الطريق ؛ وقامت السلطات بتحقيق واسع النطاق فى أمر المجبوبين استغرق أربعة أعوام ، وقدم إلى محكمة مليتوبول مائة وستة وثلاثون متهماً ، وكان جلهم من الفلاحين ومعظمهم شبان ومنهم شيوخ قلائل وأحداث لم يجاوزوا الخامسة عشرة ؛ وكانت فى الواقع أشهر محاكمات هذه الطائفة السرية المدهشة

واعترف بعض « الأنبياء » المتهمين أثناء المحاكمة بكثير من أسرار الطائفة وإجراءاتها ورسومها الوثنية ؛ ولكن ليسين « المسيح والقيصر » صرح أمام قضاته بأنه غير مذنب ، وأن المؤمنين قد اختاروه وفقاً للنبوءات المقدسة ، وأن رسل الطائفة يبشرون بالمسيح الجديد وفقاً لتعاليم الانجيل ، وأنه لا يزال على عقيدته مخلصاً لمبادئه ورسالته ، وأنه منذ شبابه يبحث عن السلام والحقيقة فلم يجدها إلا لدى طائفة « سكوبتسى » ؛ وألقى آخرون من الدعاة تصريحات روحية وفلسفية ، وأشادوا بنقاء المثل التى ينشدها المجبوبون ؛ وقضت المحكمة في النهاية على ليسين بالأشغال الشاقة ستة أعوام ، وقضت على آخرين من الأنبياء بالأشغال الشاقة لمدد مختلفة ، وقضت على معظم المتهمين الآخرين بالنفى إلى سيبيريا

وفى أوائل هذا القرن بعد ثورة سنة ١٩٠٥ سمح « للمجبوبين » أن يختاروا مكان إقامتهم ، فهرع كثير منهم إلى روسيا ؛ وقدر عدد المنتمين إلى الطائفة يومئذ فى روسيا بخمسة عشر ألفا ، وجرت بعد ذلك عدة محاكمات أخرى اتهم فيها الدعاة بالتحريض على « الجب » وقضى على مئات منهم بالسجن والنفي

* * *

وفى ظل النظام البلشفى استطاعت الطائفة أن تجوز العاصفة

بسلام بالرغم مما لحق زعماءها الأغنياء من فقد ثرواتهم وأملاكهم الواسعة ؛ ورأى الدعاة أن يسايروا النظام الجديد اجتناباً للمطاردة وقام منهم داعية يدعى ارما كوف ، فوجه إلى جميع « المؤمنين » خطاباً مفتوحاً يناشدهم فيه أن يجانبوا الغنى والكبرياء والشح ، وأن يعودوا إلى الحياة الأخوية الساذجة التي دعا إليها سليفانوف ، واقترح أن ينتظم أبناء الطائفة في جماعات روحية مشتركة ، ووضع للطائفة نظاماً تعاونياً جديداً على أساس الشيوع ؛ وحمل ارما كوف على الاختلاط الجنسي ، ووصفه بأنه أعظم عقبة تحول دون تحقيق الصفوة الانسانية لمبادئ الحياة الرفيعة ؛ وتبعه داعية آخر يدعى منشنين ، وأذاع في سنة ١٩٢٨ رسالة قال فيها إن مصائب الانسانية كلها ، وجميع المنازعات والجرائم والحروب ، هي نتيجة الغريزة الجنسية ؛ ثم يقول مايأتي : « ما الذي يدفع إنساناً إلى الاختلاس والجريمة ؟ هي الغريزة الجنسية . وفي كل مكان نرى عيادات الأمراض السرية ، وفي كل يوم تقع آلاف من حوادث الاجهاض وقتل المواليد ؛ ولقد كان العالم وما يزال غاصاً بالبغاء والبغايا ، وكل ذلك يرجع إلى فعل الأعضاء الجنسية » ويقترح منشنين كعلاج لهذه المحنة الانسانية أن يعاني الرجال عملية « الجب » في سن النضج ، ويقول إن ذلك لايضير الانسانية في شيء

وفي سنة ١٩٢٩ اكتشفت السلطات السوفيتية محافل سرية للمجبوبين في موسكو ولننجراد ، وظهر من التحقيق أن الدعاة يرتكبون جريمة التشويه ، ويبشرون في اجتماعاتهم السرية باقتراب حكم القيصر بطرس الثالث ؛ فقبض على كثيرين من الزعماء والدعاة ، وحوكموا أمام المحكمة الثورية ، وقضى على كثير منهم بالسجن « لأنهم يذيعون خرافة دينية تقترن بها فائدة مادية ، ولأنهم ارتكبوا جرائم الضرب والجرح » . ووقعت في سنة ١٩٣٠ محاكمة رنانة أخرى في لننجراد حيث قبض على كثيرين من أعضاء الطائفة وبينهم عدة من أكابر الأغنياء السابقين ، وعدة من العاملات ؛ فقضت المحكمة على الزعماء بالسجن ، ولكنها قضت ببراءة الضحايا من العمال والعاملات . وظهر من التحقيق أن الطائفة تعمل بنشاط في جميع أنحاء روسيا ، وأنها تبذل كل الوسائل وكل صنوف الإغراء لاجتذاب الأنصار ، وأنها لاتحجم عن ارتكاب صنوف الافساد والوعيد والعنف لتحقيق غايتها ؛ وأنها تستظل في دعايتها ببعض نصوص الانجيل والتوراة ، وتعمد إلى خصي الأطفال وبذل العطايا للفقراء الذين يرتضون التشويه ، واستخدام اليتامى ثم تشويههم بعد ذلك . وتجرى عملية التشويه دون رسوم معينة بل تجرى حيثما أمكن ؛ ويأخذ الداعي على الضحية دائماً عهداً وثيقاً بالكتمان . وظهر أيضاً أن الدعاة يجتمعون تحت جنح الظلام في مصلى خفي يقام فيه حاجز بين الرجال والنساء ، ويرتدي « المؤمنون » ثياباً بيضاء ويحملون الشموع المنيرة ، ويتلون صلوات من تأليف رسلهم ودعاتهم ، ويتمايلون أثناء الصلاة في حركات عنيفة تبلغ أحياناً درجة الهيام

* * *

وهكذا نرى أن هذه الطائفة السرية التي قامت منذ القرن السابع عشر على مبادىء وثنية ، وأساطير روحية سخيفة ، والتي تتوسل إلى تحقيق مثلها بأشنع الأساليب البربرية ، لاتزال تقوم إلى اليوم في قلب أوربا ، وفي قلب روسيا السوفيتية التي يغمرها جو من الالحاد والانكار لم تعرفه من قبل أمة من الأمم . على أن قيام هذه الطائفة الهمجية في قلب روسيا بالذات أمر يمكن فهمه وتفسيره ، ففي قفار روسيا النائية توجد مجتمعات من الفلاحين يسحقها الجهل والفقر ، وتنحدر في سذاجتها إلى مستوى يدنو من الهمجية ، وفي هذه المجتمعات الساذجة المتأخرة تفشو الخرافات والأساطير الدينية بصور مروعة تذكرنا بأساطير الوثنية الأولى ؛ وفيها بالذات استطاع الدعاة أن يحشدوا ضحاياهم . بيد أننا قد رأينا أن دعوة المجبوبين قد وصلت في العصر الأخير إلى طبقة المثقفين والنبلاء . وأعجب من ذلك أن تقوم مثل هذه الطائفة إلى اليوم تبشر بمبادئها ورسومها الهمجية . ولكن روسيا بلد العجائب ؛ ومن الصعب أن تتصورها قطعة من أوربا المتمدنة ، وقد كانت وما تزال اليوم مسرحا لأغرب الدعوات والمذاهب والأساطير

« فينا في أوائل اكتوبر »

محمد عبد الله عنان